كاتب من العالم

تساؤل دائمٌ عن مصير الإنسان

خريستوس كوكيس

تقف هذه الزاوية مع كاتب من العالم في أسئلة سريعة حول انشغالاته الإبداعية وجديد إنتاجه وبعض ما يودّ مشاطرته مع القارئ العربي. «العيش بلا مخاوف وأنماط، والدفاع عن كرامة الإنسان وقيمه»، يقول الشاعر والناقد اليوناني لـ«العربي الجديد»

خريستوس كوكيس

أثينا ـ **العربي الجديد**

■ كيف تُقدّم المشهد الأدبي والثقافي في بلدك لقارئ لا يعرفه؟

المشهد الأدبي في بلادي يشبه بدرجة أو بأخرى مشهدها السياسي. الموهوبون والمتميزون منعزلون ومنسحبون بإرادتهم. ومن يقتسم التمويل ويدير المنظمات هم متوسطو الموهبة، ويفعلون ذلك ببساطة وسهولة. هناك نصوص رائعة تضيع في الانكفاء والشقاق. لكن الربيع قادم، ولن توقفه العقول المحدودة التي تجمَّعت حولنا.

■ كيف تُقدّم عملك لقارئ جديد، وبأي كتاب لك تنصحه أن يبدأ؟

أنصح بكتابيّ الأخيرين «الغريب» و«الطريق الصعب»، فهما الأكثر تمثيلاً لكتاباتي. أما بالنسبة لأي قارئ جديد، فأودّ أن أقول له إنني أكتب مجازيّاً وأستخدم الحب كمكوّن أساسي للحياة، ولكن أيضاً كستار دخان للحديث عن قضايا الحياة المهمة الأخرى.

■ ما السؤال الذي يشغلك هذه الأيام؟

ما يشغلني هو تغيّر الحدود وميزان القوى العالمي الذي يلوح قريباً. وكيف بدأ الغرب وأوروبا يدركان أنهما أسّسا سلامهما لعقود طويلة على دماء وأمن بقية العالم. تشغلني أيضاً قضيتان رئيسيتان، هما: كيف للشعر أن يتمكن من إثارة الأسئلة والملاحظات الصحيحة، وكيف يمكن للناس العاديين أن يتبيَّنوا الحقيقة بطريقة فاعلة.

■ ما أكثر ما تحبّه في الثقافة التي تنتمي إليها وما هو أكثر ما تتمنى تغييره فيها؟

أكثر ما يعجبني وأحبّه في الثقافة التي أنتمي إليها هو اللغة اليونانية، ويعود ذلك لثرائها وقوة تعابيرها التي ساهمت في تطوّر الفنون والعلوم جميعها. أما ما أودّ أن أغيّره فهو افتقار الحياة العادية إلى الجماليات، والمنطق السائد عند الخصومة. في بلادي ليس ثمة رؤى واضحة، وهذا حقاً مؤلم.

■ لو قيض لك البدء من جديد، أي مسار كنت ستختار؟

كنت سأكتب عروضاً مسرحيَّة، وأختار أن أروي المزيد من القصص والحكايات. المسرح يحافظ على لغة الإنسان والقصص والحكايات الإنسانية هي العمود الفقري لأساس وجودنا والدليل عليه.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

أعتقد أن التغيير الأكبر الذي أتمنّاه للعالم هو التحرّر من البرجوازية الصغيرة، أن يحيا الإنسان متجاوزاً المخاوف والأنماط، أن يدافع عن كرامة الإنسان والقيم الإنسانية.

■ شخصية من الماضي تودّ لقاءها، ولماذا هي بالذات؟

بلا شك، أود أن أقابل ألبير كامو، المفكّر العظيم، كي أقول له: لقد تم إثبات الوجودية، وأنّها الطريقة التي تمكّنتُ بواسطتها من أن أعيش وأكتب باعتزاز.

■ ما هو، في اعتقادك، أكبر خطر على حرّية الكاتب والكتابة في العالم اليوم؟

التحدي الأهم هو أن لا يخون الكاتب أبدية الزمن من أجل كسب الفترة الراهنة والشهرة الزائلة. حينها فقط سيكون حراً في كتابة الحقيقة العالمية.

كيف للشعر أن يتمكن من إثارة الأسئلة والملاحظات الصحيحة؟

أسّس الغرب وأوروبا سلامهما على دماء وأمن بقية العالم

■ ما هي قضيتك وهل يمكن أن تكون الكتابة قضية بذاتها؟

كنت قد أقسمت أن أبوح بالحقيقة كشاعر، وألا أنتهك أو أهين قيمة الكلمة. في شعري تساؤل دائم عن مصير الإنسان، كما أتساءل دائما عمّا إذا كانت التكنولوجيا تستحق الكثير منّا مقابل فقدان الروح. أشعر بقلق شديد إزاء السهولة التي نروّج ونتداول بها صدماتنا النفسيَّة مقابل قدر زائف من المجد والشهرة والمال.

■ الأدب العالمي يكتبه المترجمون، إلى أي درجة توافق على هذه المقولة وإلى أي درجة كتبك المترجمون؟

لا أتفق مع هذا المقولة، لأنَّ المترجمين الجيّدين لا يكتبون القصيدة، بل يساهمون في ملاءمة القصيدة بنقاء ونبل في لغة أخرى. المترجمون الجيّدون لا يغيّرون درجة حرارة القصيدة أو سرعتها. بل يغيرون لهجة هالتها فحسب. وفي شعري، للمترجمين تأثير محدود وإيجابي.

■ كيف تصف علاقتك مع اللغة التي تكتب بها؟

اللغة التي أكتب وأفكر بها عمرها آلاف السنين، وهذا وحده يعطيني الحق والامتياز الرائعين للنمو معها، والصراع معها، والألم معها. وهي معركةٌ لا يمكن الفوز بها، إلا إذا فقد المرء نفسه فيها. ولن تفوز بها إذا أعلنت الإفلاس أمامها. لغتي هي جسدي الذي لا يُهزَم.

■ كاتب منسي من لغتك تودّ أن يقرأه العالم؟

أودُّ كثيراً أن يعرف العالَم خارج اليونان الشعر العميق والراديكالي لمانوليس أناغنوستاكيس Manolis Anagnostakis؛ **الشاعر الذي يتمتع بشجاعة لا مثيل لها، وكلمات راسخة في سماء الإنسانية وفي قلوب الناس الحقيقيّين.**

■ لو بقي إنتاجك بعد 1000 سنة، كيف تحبّ أن تكون صورتك عند قرّائك؟

أود أن يتم تذكّري كرجلٍ قاتل ودافع عن جميع الضعفاء والمظلومين، أولئك الذين سقطوا واحتاجوا إلى يد تُسندهم. أولئك الذين فقدوا لغتهم وأعطيتهم الشعر والكلمات.

■ كلمة صغيرة شخصية لقارئ عربي يقرأ أعمالك اليوم؟

روحي تحمل مسحةَ الشرق الأدنى. وأود القول لقرّائي العرب أن يطلعوني على ثقافتهم ويعلموني إيّاها أملاً بأن أصبح شاعراً أفضل، وأن أستطيع في يوم من الأيام التعبير عن أعمق احتياجاتهم وأرواحهم.

بطاقة

Christos Koukis شاعر وكاتب يوناني من مواليد أثينا عام 1979. عمل في مجلات شعرية وثقافية، وشارك في مشاريع ثقافية عديدة، من بينها «وثائقي أثينا 14» الدولي. تُرجمت قصائده إلى الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والصربية والرومانية والسلوفينية والإيطالية والتركية ولغات أخرى. من أعماله الشعرية: «ما بعد الجمال» (2011)، و«مفارقة الشمس الكبرى» (2013)، و«يوميات للعشّاق» (الغلاف/ 2014). يعيش ويعمل في أثينا.

مشهد

العشاء الأخير بين زمنين في فلسطين

استدعاء لتوثيق فصول الإبادة

في تنويعات مختلفة رؤية وأسلوباً، قدّم فنانون أعمالاً تحاكي لوحة دافنشي، التي تصوّر عشاء المسيح الأخير على أرض فلسطين، وتتقاطع مع ما يحدث اليوم

لوحة «العشاء الأخير مع أطفال فلسطين» للإيراني محمد علي صنوبري

محمود منير

تنتشر في الأيام الأخيرة على وسائط التواصل الاجتماعي لوحة بعنوان «العشاء الأخير مع أطفال فلسطين» للباحث والرسام الإيراني محمد علي صنوبري، تُظهر السيد المسيح وهو يتوسّط أطفال غزّة على مائدة عشاء، وخلفهم مشهد الدمار الذي تسبّبته حرب الإبادة الصهيونية.

عملٌ أتى في إطار الردّ على توظيف لوحة «العشاء الأخير» للفنان الإيطالي ليوناردو دافنشي في حفل افتتاح أولمبياد باريس، الذي اختتم منذ أيام، على نحو أثار الجدل حيث عدّه كثيرون مسيئاً للمسيحية، وقام صنوبري بنشر عمله تحت عنوان «وسط دمار مرعب مهول»، قائلاً: «مائدة من رحمة، عطف ومحبة.. هي رسالة المسيح الحيّ في قلب كل مؤمن بمن له الملك والمجد إلى أبد الآبدين.. آمين». وفي سياق الاحتجاج على المجازر الإسرائيلية، تناقلت وسائل الإعلام يافطات رفعها مشاركون في الأولمبياد، تتضمّن «العشاء الأخير» للفنان الإيراني، الذي يرسم النيران تشتعل في أعلى يمين اللوحة، في إشارة إلى استمرار العدوان الهمجي، وترتفع سحب سوداء باتجاه أفق مغبرّ ومصفرّ، بينما يتطلّع الأطفال صوب المسيح بعيون يمتزج فيها الخوف والرجاء والأمل. بموازاة ذلك، انتشرت لوحة «العشاء الأخير» برؤية مختلفة للفنانة الفلسطينية صبحية حسن قيس وتستحوذ عليها ألوان سوداء ورمادية في غرفة تحتضن اثني عشر طفلاً يمسكون بأوعيتهم الفارغة أمامهم وفوق المائدة، وهم يعبّرون صراخاً وألماً عن جوعهم، وهي من أعمال معرض الفنانة الذي افتتح السبت الماضي في المركز الثقافي ببلدة كفر ياسيف في الجليل المحتل، تحت عنوان «بائعة السمك»، لكن الصمت المطبق في اللوحة بدا صادماً ومؤثراً في مئات التعليقات حولها.

منظوران مختلفان للعمل ذاته الذي استدخلته الذاكرة التشكيلية الفلسطينية منذ زمن، لتعدّد مستويات دلالاته في النسخة الأصلية لدافنشي التي رسمها بين عاميْ 1495 و1498، وتصوّر آخر عشاء جمع المسيح مع تلاميذه قبل خيانة يهوذا الأسخريوطي، وتسليم المسيح للحاكم بيلاطس ومحاكمته تلبية لرغبة اليهود، بحسب المرويّات الدينية.

اتخذت تمثّلات العشاء الأخير بعداً أوسع للتعبير عن المأساة التي تمتدّ منذ نحو ثمانية عقود، فذهب بها الفنان الفلسطيني سليمان منصور إلى الحنين إلى زمن ماضي، حيث يظهر في لوحته التي رسمها عام 1994، اثنا عشر رجلاً من الريف الفلسطيني بزيّهم التقليدي، يجتمعون فوق سطح منزلهم وتظلّهم دالية العنب، لتناول طعامهم، تحيط بهم خضرة المكان ووداعته وسكينته قبل أن يدنّسه الاحتلال.

بعد ذلك بحوالي عقدين، رسم الفنان الفلسطيني وديع خالد اللوحة بالمسمى ذاته، وسيعيد رسم السيد المسيح يحيط به حواريوه على مائدة فارغة، يتحدّثون دون أن تتوضّح ملامح وجوههم، لكن الغرفة بجدرانها الغامقة تنفتح على منظر لقبة الصخرة في مدينة القدس وكنائسها، وفي العمق رافعات البناء التي تحيل إلى هيمنة المحتل، في محاولة لتقديم عمل أيقوني تكون المدينة المقدسة عنصراً أساسياً فيه يكثف التراجيديا الفلسطينية.

عبّرت اللوحة كما قدمها الفنان الإيراني عن رفض العدوان

نسخ مختلفة من العمل نفّذها فنانون فلسطينيون لكن ربما لم تنل حظاً من الانتشار، منهم سوسن رشماوي وزكي بابون. اختار بعضهم أن تتطابق مع اللوحة الأصلية التي تصوّر حادثة تاريخية وقعت على أرض فلسطين ولا تزال رمزيّتها حاضرة، وآخرون غلّبوا المكان الفلسطيني على العشاء نفسه. ولكن مهما كان من أمر، يبقى العشاء هو العنصر الأساسي لأطفال غزّة الذين يُعاقبون بالتجويع بما هو جزء من حرب الإبادة التي تمارسها «إسرائيل» منذ عام 1948.

قراءة

أنس سمحان الكتابة من البرزخ

غرفة تُطوِّق كلّ شيء

في غرفة تلتهم ساكنيها، تبدو باكورة الكاتب الفلسطيني القصصية كأنّها تنتظر مصيرها المحتوم في أن تكون ضحية الغرفة أو الاحتلال

يزن الحاج

ليس ثمة منطقة واضحة مسؤولة عن الكتابة في الدماغ. لدينا منطقة «بروكا» المسؤولة عن النطق، وعن فهم اللغة وإنتاجها وإدراكها، إلا أنها ليست المنطقة المنشودة، فعلاقة النّطق والكتابة ليست تبادلية، ولا يحلّ أحدهما محل الآخر. لا بدّ لنا من إيجاد حيّز آخر خارج نطاق ما هو ماديّ وجسديّ لنلتقط موقع الكتابة، وحيّزها، ومصدرها. وبما أنّ الكتابة فعلُ تمرّد في جوهرها، لا بدّ أن يكون حيّزها برزخًا بالضرورة، بين بين، بين ما هو جسديّ وما هو غير جسديّ، بين الملموس والمحسوس، بين الوعي واللاوعي. كلُّ كتابةٍ بهذا المعنى كتابة على الحافّة، كتابة من البرزخ، ينطق فيها الجسد وما وراءه، والقلب وما وراءه. تنطلق باكورة أنس سمحان القصصية «غرفة 13 وقصص أخرى» (الصادرة عن دار مرفأ للثقافة والنشر)، من البرزخ. ما يميّز قصصه هذه أنّها تنطلق من هذا البرزخ الضبابيّ، وتواصل حفرها فيه من دون أن تتخلّى عنه ويتخلّى عنها. كتابة تعي برزخها وتتوق للبقاء فيه، إذ لا يُقْنعها هذا الحدّ أو ذاك. تنوس قصص سمحان بين الحدود، بحيث تعتنق ضبابيّتها، وترسم فضاءاتها بالضباب ذاته. وليس مصادفة أبدًا أنّها قصص شابٍّ من غزّة. غزّة، أيضًا، كمصائر سكّانها، وفضاءاتها، وحدودها، وآلامها، في برزخ دائم لا فكاك منه. وليس مصادفة، كذلك، أنّ القصص ليست قصصًا لو طبّقنا معايير التّجنيس الصارمة، إذ تنوس هي أيضًا بين البوح الذي لا جنس له، وبين نصوص أُخرى منضبطة إلى درجة عالية في قالب القصة، وكأنّ كاتبها يحاول اكتشاف أدواته واكتشاف حدود هذا الجنس الأدبيّ المراوغ بطبيعته. ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام تضمّ أربع عشرة قصة - نصًا. عناوين الأقسام متناغمة مع فضاء تلك الحكايات، إذ هي عالقة بين حدّين قاتلين، مثل بندول يشقّ الهواء فينزف بوحًا مؤلمًا نتلمّس فيه ومنه شواغل شاب غزيّ كان عند الكتابة الأولى للنصوص على الأقل لا يزال في غزّة. بندول يشقّ وعيه ولاوعيه، ويشقّ هواء غزّة ذاتها في عناوين ثلاثة: ضجيج بلا إيقاع؛ تيه دون دليل (أو، في غزّة)؛ تفكُّك. كان العنوان الأوّلي «صندوق رمل»، ثم غيّره سمحان إلى غرفة 13. ومع أنّ العنوان الأول يبدو للوهلة الأولى أكثر تعبيرًا عن أجواء المجموعة وقصصها، إلا أنّ الثاني، والقصة التي تحمل ذلك العنوان، هي المعبّر الفعليّ عن شواغل كاتبها في محاولته القصصية الأولى. غرفة تلتهم ساكنيها، تقضم حياتهم بحيث تُحيلهم إلى لا شيء، وتُحيلهم جزءًا منها في آن. هل ثمة مصادفة في أنّ فعل الالتهام والقضم كان ليلة الخامس من حزيران/ يونيو؟ لعلّها المصادفة، ولعلّه قدَر الكتّاب الفلسطينيّين على اختلاف أجيالهم مع لعنة الأرقام.

جميع قصص ونصوص المجموعة تبدو ناقصة، مقضومة، وكأنها – هي أيضًا – تنتظر مصيرها المحتوم في أن تكون ضحية لهذه الغرفة أو هذا الاحتلال أو حتّى هذه اللعبة من تيّار الوعي الذي يبرع فيه سمحان بدرجة كبيرة بالنسبة إلى محاولة أولى في الكتابة. ثمة فعلُ إدانة دائم، أزليّ، سرمديّ، غير أنّ هذه الإدانة ذاتية. يجلد سمحان ذاته في هذه القصص التي تجلد هي أيضًا ذاتها، بحيث نقرأ النّدوب والسّياط لا الكلمات في ذاتها، فالكلمات غارقة في ذلك البرزخ الجهنّمي الذي يقبض على جميع تفاصيل الكلام. ما من أفعالٍ جسديّة في القصص، ولو وُجِدت أحيانًا فقدَرُها أن تكون مُجهَضة، مكسورة، مبتورة، بينما الفضاء كلّه للبوح غير المنطوق والمنطوق في آن. يبدو سمحان هنا وكأنّه يحدّث نفسه على طول القصص؛ قصص تبدو في معظمها أجزاء مبتورة من نص أوحد كان يمكن الاشتغال عليه في نصوص أطول من بعض القصص التي بدا بترها مُجحفًا، خاصة حين تُقارَن بالقصص الثلاث الأفضل التي تتوّج المجموعة: «كلارينيت»، و«طاولة لاثنين»، و«شيكل». «كلارينيت» بالذات تستحق مجموعة أفضل، إذ يتبدّى فيها نضجٌ عالٍ يبشّر بنصوص قادمة مدهشة.

شواغل شاب غزيّ كان عند كتابة النصوص لا يزال في غزّة

تبدو تلك الغرفة-الحوت وكأنّها التهمت ذلك البرزخ الذي ظنّه سمحان، وأبطال قصصه، المنجى من كلّ ما هو واضح. الوضوح مقتل في عالم سمحان القصصيّ، ولا بدّ من غموض اغترابيّ، يكون فيه الكاتب والراوي (الرواة) غريبين حتّى عن ذاتهما، فيسعيان إلى التشكُّل في فضاء آخر لشخص آخر، يخلقهما بالمخيّلة. ولا تكون الراحة من هذا البرزخ الجهنّمي إلا بالهزيمة التي تكون استسلامًا ونجاة في آن، وكأنّ الكلام عالق في رمال متحرّكة حيث كلُّ فعلِ مقاومةٍ سيُمسي فعل موت، بينما النجاة في الاستسلام والغرق. غرق في البوح، وفي التأمّل، وفي كسر الحاجز بين الوعي واللاوعي، وفي جوف تلك الغرفة التي تُطوِّق كلّ شيء.

في فيلم «إيجاد فورستر» (2000)، يحثّ الكاتب الشيخ وليم فورستر مُريدَه الفتى جمال والَس على الاستسلام لتيّار موج الكتابة، كما لو كان يقول له إنّ النّجاة هي في هذا الاستسلام في ذاته. يضع الآلة الكاتبة أمامه ويقول له: اكتب، فيبدأ الفتى بالتفكير، فينهره الشيخ: «اكتب، ولا تفكّر. التفكير يأتي لاحقًا». ليس المقصود هنا الاستسلام التام للاوعي، بل ترك المسوّدة الأولى على سجيّتها، بينما فعلُ التفكير سيأتي لاحقًا في التّنقيح الذي يكون الأداة الجوهريّة في تمييز كاتب عن كاتب.

بالمقابل، تضخّم برزخ قصص مجموعة «غرفة 13» إلى حدّ التهام ذلك الحاجز المهمّ بين فعل الكتابة وفعل التّفكير، فعلقت بعض النّصوص، وغرقت ولم تبقَ إلا أصداء بعيدة لقصص كان يمكن لها أن تحظى بتفكير أعمق وأكبر. ولكن لعلّ الأهم هو النّجاة، وهذا ما حظيت به قصص ثلاث، وبعض قصص أُخرى بدرجة أقل، تبشّر بكاتب حطّم باب غرفته، وسيواصل تحطيم الأبواب.

(كاتب ومترجم من سورية)

أنس سمحان

فعاليات

آفاق الخطاب العربي: البحث عن المستقبل عنوان المؤتمر الذي ينطلق الثلاثاء المقبل، في كلية الآداب بـ«الجامعة الهاشمية» في مدينة الزرقاء الأردنية، ويتواصل ليومين. يناقش المشاركون محاور عدة، منها: أسئلة الخطاب العربي وتحولاته، وأشكال الخطاب العربي في عالم متغيّر، و**الخطاب العربي والعدوان على غزّة**.

يُفتتح عند الخامسة من مساء بعد غدٍ الأحد، في «مركز خليل السكاكيني الثقافي» برام الله، معرض **أُم تحت الإقامة الجبرية** للصحافية المقدسية **لمى غوشة**، والذي يتواصل حتى الثامن من الشهر المقبل. المعرض يقام بالتزامن مع قرار الاحتلال بإعادة اعتقال غوشة بعد مرور عامين بالضبط على اعتقالها الأول، ويضم رسومات ملونة تحاكي تجربتها في الحبس المنزلي عام 2020.

يطلق مركز شؤون المسرح التابع لوزارة الثقافة القطرية صباح اليوم الخميس ورشة بعنوان **تعالوا نمثّل** والتي تستمر حتى منتصف الشهر المقبل. تركّز الورشة على **تأسيس الممثل جسدياً، ونفسياً وانفعالياً**، واكتساب الثقافة المعرفية عن تاريخ المسرح ومختلف المدارس في الإخراج وفن الارتجال.

حتى مساء الخميس المُقبل، تتواصل في القاهرة فعاليات الدورة الثامنة من «**الملتقى الدولي للكاريكاتير**» التي انطلقت الاثنين الماضي. يُناقش الملتقى الذي **يشارك فيه فنانون من 54 بلداً**، القضية الفلسطينية، بالإضافة إلى التغيّرات المناخية والذكاء الاصطناعي ومخاطر وسائل التواصل الاجتماعي، وقضايا المرأة.

ثقافة

في «طقوس الربيع»، أثار الموسيقي إيغور سترافنسكي، الذي تمر 140 عاماً على ميلاده، مسرح الشانزليزيه استياءً عند عرض العمل في 1913. كما أشعل فتيل ثورةٍ في الذوق العام، و تنبأ بالتغييرات التي ستلمّ في المجتمع، وبالتالي

نصوص الحياة والحرب من غزّة

نادية أبو جياب كاتبة

حكايات أيلول

تريد أيلول العودة إلى البيت وتبكي، كيف أخبرها بأنه لم يعد لنا بيت، لم يبقَ لي حتى الصور. ويطلب مهدي كتاب الصور الخاص به، يقول: ماما تاب «كتاب» بفة «قطة»... تمزق كتابك يا صغيري. اختفت كلُ الصور والقطط التي كنت تلاعبها. انقطع أثرها عن أسوار المنزل التي اندثرت تحت أكوام الركام.

جئت أشيّع جثمان بيت ولا أستطيع أن أواري ذكرياته خارج روحي، أمسح أصابعي برفق على الحائط المحني وعلى الشقوق، وأفكر بجدّية كيف كانت لحظاته الأخيرة قبل القصف، هل شلّ الخوف أبوابه والنوافذ؟ هل بكت الغرف فزعاً أم انتظرت موتها بشجاعة.

أخلينا المنزل بعد إنذار للجيران، لم يخبرونا أننا مستهدفون، خرجنا منه ظناً بأننا سنعود بعد دقائق وقد تضرر جزئياً إثر القصف على البيت المجاور، لو عرفت أننا خرجنا بلا عودة وبلا وداع، فوالله كنت قبلته حجراً حجراً واحتضنته مرة تلو أخرى.

لقد اغتالوه وحيداً، في لحظة كان يتنفس بداخلي، وفي اللحظة التالية تكوّم جثة هامدة. ولأيام طويلة ظللتُ أجيب من يسألني هل تحتاجين لشيء قائلة: أجل، أريد منزلي. وما كان لأحد أن يعيد لي ما فقدت، فواسيتُ نفسي بأنني لست وحدي إلا أن ذلك لم يفدني أبداً، البيت هو البيت بفكرة الجدران الأربعة والسكينة وكل ما نحب.

أفتح عيني كل صباح على أمل أن أجدني في منزلي على فراشي، أسير في طرقات جميعها كانت تؤدي إلى البيت، لكنني الآن أتوه عنها إلى بلاد غريبة، أروّض قدميّ كي لا تمشي في ذات الشوارع التي حملتني مسبقاً إليه. أفتح ملاحظات الهاتف وأحاول الكتابة وكل ما أحصل عليه هو طلاسم تدق في رأسي، وكأنني كنت كاتبة في عمر آخر، عشتُ هذه التفاصيل في بعد زمني مختلف تتسع الهوة بيني وبينه، وكأن ما مر لم يكن أياماً فقط.

ما سقط لم يكن منزلي، لقد كنت أنا من سقط. عندما أحرقت المدفعية بيت جدي بكيت يوماً ونعيت ذكريات طفولتي أسبوعاً كاملاً، وبعد أن ضربت القذائف بيت أهلي أمضيت أسبوعاً أبكي وشهراً تاماً أفكر بذكريات الصبا والشباب. مرّ على قصف منزلي شهر بالتمام، وكل يوم يزداد الحنين شراسة، ينبش بأظافره ذاكرتي يحفر فيها حقيقة بشعة، وما زلت أحاول أن أصدق وأهدهد حوارات أيلول وعبء طفولتها يجثم مثل جبل على صدري.

- بابا أنت رايح على الدار؟

- لأ

- طيب الدار لسه مكسرة؟

- اااا...

- ماما وين ألعابي البطات والدعسوقة؟ راحوا بالقصف؟ ماما ليش بتلبسيني بوكسرات كبار وين بوكسراتي؟ ضلوا بخزانتي؟ ما شفت أواعيا وينهم يا ريت شفت خزانتي، وينها صح راحت بالقصف.

- بابا ليش ما أخدت عصفوري لما طلعت!

- أيلول إنتي عارفة شو صار في العصافير؟!

- آه ماتوا

- ا...

أو حينما تمسك الهاتف وتنادي: سيدو تعال أورجيك صور دارنا ودارکو مكسرين.

تطور وعي الصغيرة سريعاً وفهمتْ خلال الوقت أن عودتنا إلى هناك مستحيلة، ومع الاجتياح للمناطق الشرقية وللحدود ونزوحنا للمرة الرابعة خلال شهر، وتجهزنا للنزوح الخامس استعداداً للخروج الأخير من رفح، باتت الحوارات أشد قسوة.

- ماما وكتيش بدنا نروح على الدار، مش دارنا المقصوفة في البرازيل لأ، على الخيمة اللي حكيتي عنها عند تيتة وبابا.

- خالتو الطيارة الصغيرة بعيدة في السما قصفت كل ألعابي، ما ضل عندي ألعاب ولا حتى وحدة، أنا بسمع صوتها بخاف وبتخبى عند ماما.

أيلول التي بكت وصرخت إلى جانبي، وأنا أنهار على عتبات منزلنا عندما فتحتْ الباب الذي ظل واقفاً بخجل، ودخلنا إلى ساحة المنزل لنقابل الركام مشدوهتين نتساءل ما بال وجه المنزل متسخ هكذا؟ أين الباحة الواسعة؟ أين ممر بيتنا وأين ملامحه التي نعرفها ونحفظ أدق تفاصيلها.

لم أترك يدها وأنا أنتفض من الألم، أنحني على الأرض المتشحة بلون البارود أتقيأ قهراً قبل أن أجر جسدي وأعدو هاربة من أمام أنقاض البيت أم هل أقول «أنقاضي»؟!

لست بهذه القوة ولا بهذا الجبروت الذي يفرض علينا، لست مجبرة أن أخبر أحداً أنني صامدة في وطن لا بيت لي فيه ولا زرع يتيماً دفن أسفل طبقات الحجارة المهروسة. فكلما فكرت في المنزل الذي انتظرته تسع سنوات كاملة ولم أهنأ به سوى ثلاثة أشهر قبل الحرب أشعر بأن هناك ما ينجرف مع الطوفان، أضع يدي على معدتي وأجبر عقلي على التوقف عن التفكير هلعاً أن أنفصل عن واقعي في محاولة لإنكار ما يحدث معي، أمنطقي ما يحدث معنا!

لم أعد خارج اللوحة بل جزء لا يتجزأ من المشهد. صورة قديمة بالأبيض والأسود، وفي نشرة الأخبار، صرت أنا الخبر العاجل، إشارة نصر هزيلة تتأرجح على ألسنة الإنسانية المقطوعة منذ شهور. فسلام لقلبي ولقلب أيلول ذات الثلاث سنين.

شهر كامل مر على دمار منزلي بشكل كلي، شهر واحد نزحت فيه مع أطفالي قسراً أربع مرات متتالية، ويا لسخرية القدر، التاريخ ذاته تحديداً يُتوج بالنزوح الخامس والخروج الأخير من رفح إلى خيمة لا تصلح للحياة، كانت الليلة السابقة للنزوح عصيبة جداً على استيعابنا، قذائف صوتية وأحزمة نارية تعني عدة صواريخ متتالية تسقط في مكان واحد، لم أستطع النوم وأشك أن شخصاً استطاع النوم منذ دقت الساعة الثانية فجراً وبدأت الحفلة كما أسميناها.

يدٌ على قلبي ويدٌ تتابع مهدي الصغير وهو ينتفض مع كل صوت أو انفجار، صار الخوف مرادفاً للحياة هنا، مهدي الشقي الذي أدور حوله مثل نحلة من الصباح حتى المساء، لا يكل ولا يمل من القفز وأنا خلفه أصرخ وأرمم ما أفسدته يداه. قبل يومين سقط مهدي في بانيو الحمام، رأيت جرحاً في الذقن لم يقطر دماً غزيراً لكنني كنت أرتجف كما حالتي عندما يصاب أحدهم بجروح، رفض والده اصطحابه إلى المستشفى معللاً أنّه لا حاجة لذلك لكن في اليوم التالي، لأنّ طفلي لا يستكين في مكانه لدقيقة واحدة صعد إلى مكتب خشبي وفُتح الجرح مرة أخرى.

حملته وركضت إلى عيادة الأونروا، وطلبوا مني التوجه إلى المستشفى الميداني الأميركي لأن جرحه بحاجة إلى غرز طبية، قبل أشهر في منزلي سقط وجرح أسفل عينه وحماه الله من إصابة خطرة، بعد أيام سقطت أيلول عن كرسي وأصيبت في جفنها العلوي وتركت علامة واضحة وبعد أيام كانت تركض وراء ابنة خالتها وزلّت قدمها وفُتح جرح أسفل ذقنها وتركت ندبة أخرى. كل هذه الندوب حملتها بداخلها أرى أثرها واضحاً مثل خيط الفجر حين يشق بطن الليل، ومن بحاجة لندوب إضافية في خضم ما يحدث.

عندما اشتد القصف تذكرت شعوري وأنا أراقب الأطباء الأربعة يحاولون الإمساك بطفلي لتقطيب جرحه، يصرخ وتلقائياً وضعت يدي على بطني أتحسس خط السيزيريا، كم تمنيت لو تتحول إلى جراب أستطيع وضع أطفالي فيه والقفز بعيداً، بعيداً جداً.

من مكاني بين رفح وخانيونس في ما يسمى بالمنتزه الإقليمي اختتمت نزوحي الخامس بخروجنا إلى مكان حدوده سحب الدخان الأسود المتصاعد من غرب رفح، نفترش الأرض وتغطينا السماء لكن السماء قنبلة موقوتة قد تنفجر مخلفة شظايا وأشلاء بشرية. على امتداد البصر خيام ومعسكرات، أقمشة فراش وستائر ضحى بها أصحابها وصنعوا منها خياماً تسترهم، أغطية لفوا بها الأخشاب ثم حولوها لغرفة يستخدمونها للنوم والطبخ والعجن والأكل والجلي، لكل شيء ما عدا الراحة فلا حائط يستطيع المرء أن يسند ظهره إليه، ولا هدوء يسدل أستاره على أوقاتنا، حرب طاحنة وعالم سُرقت منه الألوان. يقتلني التفكير في كل شيء، فكل شيء شقاء وجهاد.

الساعة الثانية عشرة ليلاً نسمع صوت انفجار قوي تهتز الخيم وترتعش أرواحنا فنركض خارجاً، وفي ظل انقطاع الإنترنت والاتصالات أشعر كأنني في العصر الحجري فلا نعرف ما يحدث ثم نعود للنوم واجمين. يتكرر ذات الحدث الساعة السادسة مساء في اليوم التالي نهرع خارجين من الخيم وننادي أيلول من أمام الباب لتدخل ونهمس بيننا «كأنه القماش هادا هيحمينا!» نراقب المروحية تجول وتلتف في سمائنا وفوق بحرنا وتعود لتطلق نيرانها ويلفنا الصمت.

ينطلق الصغار بين الخيم يبيعون الترمس والفستق المحمص والعوامة وأصابع الحلبة. في البداية كنت أسمع أيلول تعيد وتكرر ما ينادي به البائع ثم صارت تطالبنا كل دقيقة أن نشتري لها:

بابا بدي حليب

بابا بدي عوامة

بابا بدي فستق زاكي

بابا بدي عصير متلج

أقف متوعدة ومهددة « بكفي، أكلتي كتير، بكفي مش عارفة نظيف ولا لأ»، فتأتي باتجاهي ضاحكة وتلقي بنفسها بين ذراعي وتقول: «ماما اشتريلي».

ألين وأقول: «حاضر، كم لولو عندي، مش بكفي الحرب عليهم».

مرّ اليوم... أحدهم يبيع مكملاً غذائياً، ويبدو أنها لحقت به ولم تعرف طريقاً للعودة. أجل ضاعت العزيزة أيلول، كنت أقف في الساحة أتحدث مع والدها وجدتها في حوار بدا ذا أهمية آنذاك حينما صعد سؤال إلى حلقي من دون مبالغة ثم هوى إلى عمق من دون قرار.

سألتُ فجأة: أين أيلول؟

نظرنا الى بعضنا قبل أن ننهض بوتيرة واحدة. ذهب والدها غرباً وتوجهت أنا شرقاً، ناديت حتى لطم الصدى وجهي، وصاح منادياً: خاوية خاوية. خرج والدها الى الشارع يسأل وصعد جبلاً من البسكورس يلعب فوقه أبناء عماتها، رأيته يستدير ويعود، بجانبي، كان مهدي الصغير يجذب بنطالي فحملته عائدة وألقيته في حضن جدته وهرعت إلى أزقة المخيم. عاد والدها خالي الوفاض وضوء النهار يتسرب إلى البحر.

لا أيلول، إلا أيلول...

يضيع الكون والبيت والحياة وتظل الأيلول، رأيتُ والدها قادماً منكساً أعلامه وتذكرت لحظة قصف البيت حين عاد يشير إلى صدره يقصد «بيتنا الذي قصف»، نظرت جيداً ارتفعت أصابعه لتشير إلى نقطة خلفي، والتفت. كانت أيلول وسط رهط من الرجال السمر تدب دون حذاء في الرمل الأبيض بأصابعها المصبوغة باللون الأحمر وبدت عيونها الكورية أشد ضيقاً لا بد أنها بكت بشدة. ركضتُ باتجاهي ودفنت وجهها في ملابسي وبقينا عالقتين نحن الاثنتين حتى تجمع الناس حولنا وسمعت أحد الرجال يقول: «البنت شاطرة حكت اسمها أيلول محمد المنيراوي، حتى اسم أمها حكته، كنا رايحين نسلمها للشرطة». ضغطت على يدها وقد امتزج قلبي بطعم مرير وعدت إلى الخيمة، وكأنني في نصف ساعة سلخت عني عمراً كاملاً من عمري.

أول مرة وصلت إلى المواصي التي طُلب منا النزوح إليها كان الجو بارداً والخيمة شديدة الاتساخ، بكيتُ لساعاتٍ حتى اصفر وجهي وغدا قلبي فارغاً، وفي الصباح بدأت الشمس تدق أوتادها في رأسي وكان ينزف جسدي عرقاً مخضباً وتشتعل النفس بحرقة، لأكثر من خمس ساعات يومياً نشوى تحت أشعة الشمس مثل أكواز الذرة، تُدق الأوتاد في رأسي وتصرخ الجيوب الأنفية باستغاثة فاشلة، كلما حاولت أن أنحني بسجدة أو انحناءة قصيرة يصير للوجع حكاية صارمة، أنشج بصمت وأتقوقع على نفسي دافنة قدمي في الرمل أبحث عن ظل في صحراء من سعير، لا ماء متوفراً فأسعاره أضعاف ثمنه الحقيقي، والرمل الأصفر يلفظ زجاجاً وحرارة، بينما يتناوب المئات من الذباب في هجومه علينا ويرتمي على طعامنا ويضرب وجوهنا، يقرص الألم قلبي وأنا أطارده ليبتعد عن الصغار بلا نتيجة.

يجمع النهار أطراف ثوبه متأخراً ويرخي الليل جدائله وعلى استحياء يخدش الخوف أفكاري، تغزو أصوات الانفجارات السماء بجنون، أنكمش في زاويتي ويأكل البرد أطرافي ولا أملك ما يقيني وأطفالي سُمه. نختبئ أسفل قماش دفعنا فيه كل ما نملك لنعيش في الشارع بشكل نحسبه أفضل من الرصيف، حياة من دون أدنى مقومات الحياة، لا ماء لا طعام لا أمان. فقد ألقونا في الصحراء بدون أي شيء، يدور مهدي حول عمود الخيمة في المنتصف تماماً ويغني:

« أنا النحلة أنا الدبور

وين مسافر

ع اسطنبول «

وتطفو أيلول في دورانها حوله مرددة

«دور دور دور

دور يا صحن السكر

والصحن كان مدور

متل البدر المدور

عبيته من التوتة

والتوتة حلوة حلوة

متل السكر».

انفجار يصم الآذان نتنهد بقوة، ويختبئ الصغار في حضني، تهتز الخيمة مع كل قذيفة، أقول ساخرة: «من رمى برميل ماء من سطح منزله؟» وتعلق أيلول كلّ ليلة قبل النوم: «ماما خايفة الخيمة توقع عليّ وعليكِ».

أستودعني وأطفالي وأحاول أن أنام.

> مرّ على قصف منزلي شهر بالتمام وكل يوم يزداد الحنين شراسة، ينبش بأظافره ذاكرتي يحفر فيها حقيقة بشعة

عمل للفنانة الفلسطينية صبحية حسن قيس

علاء أبو جحجوح قاص

ميلاد في النزوح

ما كنت أخشاه وما زلت، أن أرجع إلى السطور الأولى من الدرس الأول ذي العنوان الأكبر في تاريخنا، ليس من الخرايف أو من وحي الخيال، ولا استعطاف أو استبكاء لجلب المصفقين والمهللين لما سيتم ذكره، بقلم لا يرى الضوء، لا يشتمّ ولا يتذوق ما يحلو لَه، أقف على أعتاب هشة، لا تنادي بما تهوى فأنا بين قوسين لي اسم واحد، أعلم أنّ عدد أيامها يزداد ظلماً، نحن على مقربة من غروب شمس المدينة، المتكئة على جذوع الأشجار الملقاة على الطريق، فاقدة الظل، شحيحة الماء، خالية المارة، متناثرة الأشياء، شاحبة الوجه. تبدأ علامات طقس الليلة، راعدة، ماطرة، ريحها عاصف، أنا وأبنائي الخمسة ملتحفون الجسد من شدّة البرد، أعشق هذه الأجواء من طقس الشتاء، ويزداد عشقي لها حين يصاحبها موقد النار، فنجان قهوة وحكايات من زمن ماضٍ يشبه زمني كأنه ثابت لا يتغير، تنهيدة تَعصف بالجالسين على أهبة الاستعداد، مصدرها جدّة الأولاد وهي تقرأ على أصغرهم آيات قصيرة من القرآن الكريم، ليتسنى لهم النوم منذ ليال لم يذق طعمه، من شدّة اهتزاز الأرض من قصف الطائرات المغيرة. عادت شمس النهار في صباح، لا صوت فيه لبائع الحليب، ولا نهيق الحمير، خافتةً الشعاع من غبار الأرض المحروقة، زقزقة العصافير ضئيلة، صوت المدفعية يوقظ النائمين من ساعة فقط، هل هذا صحيح يا أبي بما ينادي فيه جيش الاحتلال؟! إذن إلى أين سنذهب؟ فيض من التساؤلات المرتجفة، حين أعددت اجتماعاً قصيراً جداً، سنخرج من بيوتنا نازحين يا أبي؟! فالوقت المحدد لنا أخذ بالنفاذ، بحسب تعليمات جيش الاحتلال.

■■■

يزداد ضرب المدفعية كلما نقصت دقيقة واحدة من الساعة، حتى أصبحت تتساقط على جوانبنا الأربعة، أتظاهر بصورة المتماسك كي لا يتفشى الرعب في قلوب أبنائي وأمهم بالمثل، يلتقط البصر مزيداً من الصور يدرك أنه في حاجة إليها، يلامسُ مرافق البيت بأنامل ضعيفةٍ مرتجفة، يصعب علينا الخروج نحو المجهول، لا قرار حتى الآن، ترتطم قذيفة المدفعية بجدار البيت فقد أصبح القرار متخذاً، نحن منبطحون وأيدينا فوق رؤوسنا؛ إنها الحرب. اقتربت شمس ظهيرة يوم النزوح وجلبت معها المزيد من العرق، كما طائرات الاستطلاع المراقبة لكل متحرك، أُغلق باب البيت بقطعة من الجنزير وأنا أدرك أن لا فائدة من ذلك، ولكن هذا قرار والدتي ليصعب عليهم الدخول، تخترق المدفعية بصوتٍ مدمر، تتطاير حجارة غرفة النوم وغيرها وأنا أقف على رأس الشارع المؤدي إلى بيتي أثناء المغادرة، تلحق بها قذيفة أخرى لم يبق أمامنا إلا النجاة بأنفسنا، ساعات قليلة هي الباقية للوصول إلى منطقة النزوح المحددة لنا غير الآمنة مشياً نَعتِلُ غطاء أجسادنا، بعض الملابس، فراش نومنا، قوارير ماء فارغة، تتعدّد ألوانها.

حين اقتربت شمس الغروب، قلتُ: توقفوا سننصب هنا خيمتنا للمبيت، يسقط الجميع أرضاً من عذابات الحرب، يستلقون على ظهورهم من شدة التعب، غير شاعرين بالعطش والجوع مما شاهدنا في طريقنا إلى هنا من ويلات وآهات لا تنسى، أخذ العقل يسترجع ما شاهده في طريق النزوح، يبدأ العقل الأول، ما هذا يا جدتي؟! اقرأ الفاتحة عليه وغطّ رأسه بقميصه وضعه بجانب الرصيف، ينهض العقل الثاني من الأبناء باكياً، أتعتقد يا أبي، ما شاهدنا من نار مشتعلة في عربة الإسعاف قد أطفئت، وماً مصير من فيها؟ أم أنهم احترقوا كما العربة. ترفض باقي العقول أن تضع في ذاكرتها ما شاهدته أثناء النزوح من أرجل مبتورة، وأذرع أيضاً، ورجال ونساء وأطفال محمولة إلى القبور، انهضوا نحن على أعتاب الليل وبرده القارس لننتهي من خيمة تؤوينا، يصعب علينا بناؤها، يقترب بعضنا من بعض وأيدينا مرفوعة إلى سماء بلا قمر، داعين الله.

■■■

> حرَق الجيش مكتبتي وهنا الصدمة الكبرى، لأنّها تعني لي كلّ شيء، ورثتها عن أبي. مكتبة فلسطينية بامتياز

تفككت الغيوم، وهدأ برق السماء من ليلة نزوح أجزم أن بها المطر، نمت ومن معي من أسرتي وأسر النازحين في عراء، يغزوه نباح الكلاب، وفجراً يفتقد صياح الديك، وصحوة من نوم كاذب على طابور ماء ورغيف. كاد كتفي يخرج من مكانه من تزاحم المنتظرين للقمة العيش وشربة ماء، نجوت بهم بأعجوبة، تفقّدت ملابسي حين انتهيت، هو اليوم الأول لنزوحي إلى مدينة رفح، جاء من لديه خبرة من شباب المدينة وساعدنا في بناء خيمتنا بين تلال الرمل (المواصي) انتشرت بينهم ومعي أولادي، لجلب أغصان الشجر، وموقداً لطهي عدس الغداء.

بدأت معاناة النزوح تكبر وتتسع. لون البشرة الشقراء والبيضاء تساوت مع السمراء من حرارة الشمس التي تحتفظ بها خيمتنا، والتي تفوق الدرجة المئوية.

وحين جاء رمضان، وفي الليل حين أُعلنتْ رؤية هلاله يدخل ابني علينا الخيمة وبكل حرقة دم وعصبية، يقول: لا أريد أن أعرف شيئاً، فقط أريد نجمة وهلال رمضان لأعلقها على باب الخيمة فرحاً بقدومه، ويحذر أمه يا ويلك إن نسيتِ أن توقظيني على السحور، أنا كبرتُ وأريد صوم اليوم الأول فقط، هذا كان وعد أمه له قبل الحرب، والآن اختلف الأمر. يدرك صغيرنا أنه يعاني الجفاف من دون صوم.

كنت أمل العودة إلى بيتي قبل الشهر السابع، لكن الحرب المدمرة مستمرة، وأعداد الشهداء تجاوزت رقماً يصعب عليّ كتابته. لا أفكر إلا في العيش الكريم والحرية المطلقة، هذا اليوم الأخير لشهر رمضان ، أقف أمام المرآة متردداً وراجياً، ولولا حلف يمين والدتي وزوجتي معاً ما كنت وقفت استعداداً ليوم غد العيد، صُعقت وأنا أنظر إلى المرآة من رؤية وجهي الناحل، الأسود، وشعري غير المنظم، ولحيتي البيضاء. ذرفت الدمع، على ما رأيت في المرآة، تزامناً مع إبلاغي أن بيتي قد سوّي بالكامل في الأرض، وأحرق الجيش مكتبتي قبل التسوية، وهنا الصدمة الكبرى، لأنها تعني لي كلّ شيء، فقد ورثتها عن أبي. مكتبة فلسطينية بامتياز. تركتُ لحيتي وشعري كما هما، وغادرتُ خيمتي صائماً، لا أعرف إلى أين أتجه، أخذت أقلبها كتاباً كتاباً، أضحك وأنا أتجول بين خيام النزوح في مدينة رفح، أثارت الضحكات الكثير ممن تجاوزتهم وأنا أردد أسماء الكتب المقروءة وغير ذلك. كل عام وأنت بخير أستاذي ألم تعرفني بعد؟! كيف لا أعرفك العتب على النظر يا بني، قلّي أي من الطرق ترجعني إلى منطقة النزوح الأكبر منطقة العطار المجاورة للحدود المصرية، تفضل أستاذي من هنا.

■■■

انتهت أيام العيد الثلاثة، كما شهر رمضان، والأمل يتجدّد بلا غارات بعد اليوم لطائرات تقتل وغيرها من آليات حرب، وأن يُشفى الجلد والرأس مما يجعلك كالمجنون ليل نهار، لا دواء والشفاء ضعيف، وتفشي المرض يزداد بين النازحين بجانب ويلات كثيرة جلبتها الحرب، وطقس الصيف سيشعل الخيام ناراً من حرارته. يُطلّ علينا اليوم الأول من الشهر التاسع للحرب في حزيران/ يونيو، وقد نزحتُ من مدينة رفح إلى مدينتي مسقط رأسي خان يونس المنكوبة التي أوجعت قلبي كلما مررت بها وتعمقت بشوارعها، وضعتْ خيمة النزوح للمرة الثانية بين تلال رملها، أنا ومن معي من مدينة رفح، وفي منتصف ليل حرب ضروس، سماتها العنصرية، والإبادة الجماعية، والتدمير، الأمل فينا أن ننجو بأرواحنا، يعلو صوت الزغاريد من خيام النازحين المجاورة، اعتقدت أن الحرب انتهت، قفزتُ فرحاً، وأيقظتُ أسرتي، خرجت من خيمتي أتساءل عن سبب الزغاريد، فإذا بجارتنا في النزوح أنجبت ولداً.